غيلان

المهدي عثمان

الطبعة الأولى

2023

دار الوسام للنشر

الإهداء

إلى عائلتي

إلى حبيب بن فضيلة

إلى نور الدين بن فطيمة

إلى أصدقائي في كل مكان

-1-

سأقصّ عليكم حكايتي.

حكايتي تبدو بسيطة جدا. تشبه الكثير من الحكايات الأخرى المتداولة. ولكنها حكاية مختلفة في تفاصيلها.

حكايتي بسيطة تشبه إلى حدّ ما أغنية أحد الرعاة وهو يرعى أغنامه في أرض الله الواسعة. ككل أغنية تصدح بها حنجرة.. نفس الحنجرة، ولكن الكلمات مختلفة، تبعا لاختلاف المواضيع والأحاسيس والظروف.

حكايتي بسيطة تشبه إلى حدّ ما طنين نحلة في البراري، وهي تنهل من رحيق الزهر المنتشر في الأرجاء. كل نحلة تقوم بنفس تلك الدورات والحركات والأصوات ولكن العسل حتما سيكون مختلفا من نحلة إلى أخرى. حكايتي مختلفة في التفاصيل والجزئيات، رغم أنها تشبه أيّ حكاية أخرى.

سأحكي لكم عن اللحظة التي ولدت فيها، اللحظة الأولى حين ينفلت رأس أي طفل من بين فخذي أمه. يُلقى على أي فراش، ثمّ يُرفع من رجليه إلى أعلى ليصيح صيحة وجوده الأول، بعد أن طبطبوا على مؤخرته الطريّة، وقد ارتفعت الزغاريد في أرجاء البيت تعلن عن بداية الخلافة للرجل الفرد الباحث عن تثبيت رجولته. ولكن مثل

هذه اللحظة بقدر ما تعنيني كثيرا، إلا أنها ليست بتلك الأهمية التي ستحدد لاحقا مسيرة حياتي ككائن مختلف. ثم إن تلك اللحظة عشتها بطريقة مختلفة جدا، مما يجعل سردها مؤلما وقاسيا. فأنا لا يمكن أن أبدأ حكايتي من أكثر اللحظات مرارة وقساوة. أصعب لحظة يمكن أن يمرّ بها أي كائن على وجه الأرض. لا يهم إن كنت ولدت في الصباح أو في المساء أو في آخر الليل. لا يهم أيضا إن طبطبوا على مؤخرتي كأيّ رضيع يأتي إلى هذه الدنيا، أم اكتفوا بأن ألقوا بي هناك في أي مكان لأكمل رحلتي منفردا وحيدا. كل هذه التفاصيل لا أستطيع أن أسردها الآن. بل ليست من الأهمية بحيث يجب أن أبدأ بها قصّتي التي سمعت أغلب تفاصيلها من خلال حكاية الناس وما وصلني منهم من تعاليق وآراء ومواقف. من خلال التنصت على البيوت والأعراس والمآتم.

لا يهم.. ربما أحكي لكم عن العلاقة التي تربطني بوالدي. ذلك الوالد الذي يعدّ عماد البيت وأساس ثباته. والدي الذي يشبه كلّ الآباء، ولكنه يختلف عنهم في التفاصيل من حيث جريان الحب وتدفقه. يختلف عنهم في الدقة والصرامة. ولكن علاقتي بأبي كأي علاقة تشدّها أوتار مختلفة السمك والدقّة. علاقتي بالأب، علاقة معقّدة وصدامية في اللحظات القليلة التي جمعتني به. هل أنا أعرف والدي حقا، حتى أصفه بالقسوة أو بالليونة؟

لهذا سندع موضوع الأب إلى مرحلة أخرى من الحكاية، حتى لا أفسد عليكم نشوة القصة وتشويقها.

أما حكاية أمي فهي الأكثر أهمية. لهذا سأبدأ بما انتهى إليه ذلك

الحدث الجلل في حياتي. ذلك الحدث الذي جعل قصّتي تشبه قصّة أي كائن آخر، مع اختلاف طفيف في التفاصيل والتعرجات والانحناءات.

أمّي التي تشبه أيّ أمّ أخرى في علاقتها البسيطة بأطفالها وعائلتها، أو هكذا أعتقد. رغم الاختلاف الطفيف في جريان الماء بين التعرجات والانحناءات. لا يهم الماء بقدر ما تهم الفائدة منه. ولأن علاقتي بأمي نفعية كأي مصلحة مشتركة، فإن الحديث عن هذا الموضوع يثير الكثير من الحرج والإرباك. عقدة الأم أشدّ خطورة من أي عقدة أخرى. الأم فكرة الروح المتشظية، العذابات والجراحات. لهذا دعنا من هذه البداية الجارحة والأليمة. فالأم جرح غائر لا يُشفى في العادة بسهولة، كأي جرح. إنه جرح متعفّن يظل ينزف بلا هوادة.

أمي التي انتهت علاقتي بها منذ اللحظة التي سقطت فيها بين فخذيها. أمي ذهبتْ ضحية شهوة عابرة، وانتهت إلى نهايتها المتوقّعة والمنتظرة. لهذا لا يمكنني أن أقصّ عليكم تفاصيل العلاقة التي تربطني بأمّي. كأي كائن يتحدّث عن تلك العلاقة بشغف لا مثيل له. وإن كانت بعض العلاقات التي تربط الأبناء بالأمهات علاقات متوتّرة وصداميّة.

إذن، يمكنني أن أبدأ قصّتي من أي حدث آخر أقل إيلاما. يمكن مثلا أن أبدأ من فكرة الحب أو الكره أو المعاناة أو الموت. آه الموت.. نعم الموت. يمكن أن أبدأ قصّتي من هنا. من خط الانطلاق هذا، نحو خط الوصول الذي أريدكم أن تدركوه معي بمنتهى الثقة.

ثقوا أنني سأسرد لكم القصة كاملة وبكل تفاصيلها، ودون إضافات أو تعديلات. فمن الموت يمكن أن نفكك الحياة، ونعيد رسمها بكل

تفاصيلها، مثلما نهدم بيتا من أساسه لنعيد تشييده كما كان. ليس الفعل فعل ترميم أو «رتوش» بل إعادة تشكيل الصورة كما هيّ بألوانها وتداخل أجزائها وتناقض التفاصيل التي تحكمها.

أنا الآن هنا في هذه الحفرة تحت الأرض بقليل.. هنا في هذا القبو المظلم الأشبه بقنينة مغلقة. تتسرب إليه بعض الإشعاعات الرقيقة من ثقب أعلى القبر يفتح على محلّ ضيّق تمّت زخرفته وتنميقه كأحسن ما يكون البهاء. ليس من أجل عروس أو ساكن جديد لجأ إلى القرية بعد أن فرّ من حرب طاحنة. ولكنه محلّ أعدّ لميّت. معذرة على صراحتي، ولكن هذه هي الحقيقة. نعم أعدّ لميّت كي يُبعث من جديد فيجد حوله ذلك الزخرف بألوانه الخضراء الزاهية غير المعتادة. فالقبر تحت بيت ضيّق داخل محلّ أرحب هو المسجد. أليس صحيحا؟ أتكئ على أحد جدرانه ساحبا قوائمي إلى جهة الصدر كي أحافظ على توازني في المكان، دون أن ينتابني الارتباك والخوف.

كنت أتوجه إليه بالكلام كي يشاركني، ولكن دون جدوى. دون أن ينبس ببنت شفة.

أنا الآن مع جثّة أخرى ممددة بكلّ بهائها كأنما وضعت للتوّ لا تشوبها شائبة. جثة الوليّ الصالح سيدي الساق، الذي بنوا على قبره غرفة تشبه غرفة أي وليّ صالح، ثم شيّدوا حول الغرفة مسجدا للعبادة يؤمّه الناس عند كل صلاة، وقد قضم الزمن من سجلّ أيامهم تاريخ ذلك القبر، ولا أحد سأل عنه منذ لحظة دفنه، وتشييد المسجد فوق تلك القبّة المزخرفة. وجدتُ الجثة الممددة أمامي لا تشبه أي جسد آخر عرفته في هذه القرية النائية. الكائنات هنا

تشبه بعضها، وهي تنتصب على ساقين إثنتين ورأس ألصق بين الكتفين ككرة النار تحركها الأفكار وشطحات الريح. كل الناس هنا يرتدون ما به يغطي عوراتهم، بالقماش أو الصوف، وأحيانا يضعون على رؤوسها عمائم أو أغطية صوفية، تقيهم من البرد والحر، وتستر عورة المرأة وتزيد من حيائها. أما بقية الكائنات فهي إما بأربع قوائم مع اختلاف طفيف في الطول والارتفاع وشكل الجمجمة، وإمّا بقائمتين وجناحين وريش رُتّب للكساء والطيران. وهنا أستطيع أن أؤكّد لكم أنني أقصد الإنسان والحيوان بالشكل الذي نعرفه لكليهما. أما هذا الكائن الممدد أمامي فلا يشبه أي كائن مما ذكرت، عدا اللحاف الذي لفّ به وقد اهترأ بفعل الزمن وتآكلت أهدابه، حتى بانت قوائمه. له ثلاث قوائم لا غير، ورأس أصغر قليلا من رأس الحمار بأذنين قصيرتين كأذني ذئب. نعم هكذا تماما، مثلما وصفته لكم. اللحاف الأبيض الشفاف الذي يغطيه، يسطّر تفاصيل الجسد دون عناء. مع أنّ الإضاءة هنا في هذا القبر ليست بالكفاية التي تجعل بإمكاني تحديد الملامح بدقة. مع ذلك هذا ما رصدته وخمّنت أنه هوّ تماما، له ثلاث قوائم لا غير، ورأس أطول قليلا من رأس الحمار، بأذنين قصيرتين كأذني ذئب. ولعلّ ما جعلني مميّزا عن بقية الكائنات ـ إضافة للشكل ـ هو قدرتي على أن أرى في الليل. لي عينان كمصابيح الليل، ترى ما لا يُراه الإنسان العادي. ولكن حتى الحيوان له نفس تلك القدرة على الإبصار في الليل، خلافا للإنسان الذي يحتاج نارا أو مصباحا لينير له دجور الظلام. لذلك أمكنني أن أرى المسجّى في القبر بعد أن فتحت الحدقتين على آخرهما.

أوّل مرّة أنزل إلى هذا القبر، بل أول مرة في حياتي أنزل إلى قبر.

رغم أنني رأيت الكثير من الأموات، والكثير من الجثث التي واروها التراب في تلك الحفر الضيقة التي تسمّى قبورا. وبعض تلك الجثث، كانت لأشخاص كنتُ سببا في موتهم. وكان طبيعيا حسب اعتقادي أن أطمئنّ على دفنهم بعد أن كنت سببا في موتهم.

أول مرة نزلتُ إلى هذا القبر، هاربا من الجموع الغاضبة التي أعَدّت لي محرقة لتتخلّص منّي، وتنتهي مأساتها إلى الأبد. كانت كميّة الحطب المعدّة للحرق قادرة على حرق قرية بأكملها. قضّوا الأيام الطوال من أجل جمعها من الغابة، حتى جعلوا منها صحراء لا تصلح لردّ الريح ولا لتفقيص بيض العصافير. ظلّوا لأسابيع يجمعون الحطب من الغابة المحيطة بالقرية، على أمل أن أسقط بين أيديهم ثم يلقون بي إلى أعظم محرقة أعدّت لكائن عبر التاريخ حسب أهل القرية.

وقد سمعت وأنا مسجى على الصليب الذي أعدّ لرفعي إلى أعلى من أجل حرقي، أن هذه النار ستكون كالنار التي أعدّت لإبراهيم. حتى أنّ شيخهم كان يردّد وهم يكدّسون الحطب تحت الصليب « يا نار لا تكوني بردا وسلاما على هذا». ويشير بسبابته إليّ. كأنه لا يريد أن يسميني، أو أنه يخشى ذكري. ولعلّ الأصحّ أنه لم يجد اسما يناديني به. كان يشير بسبّابته نحوي ويضع يده اليسرى بين فخذيه، يشدّ جبّته الرّماديّة كي لا ترفعها نسمات الريح القادمة من جهة الشرق. ثم بنفس تلك اليد يشدّ على عمامته كي لا تسقط، أو ربما محاولا أن يعيد إليها وقارها بين الجموع.

ظلوا يكدّسون الحطب في وسط الساحة الكبرى، بعد أن وزّعوا في كل فضاءات القرية وأنهجها ومنعرجاتها ومداخلها، حفرا عميقة،

تكفي لاحتوائي كاملا حين أسقط فيها، بعد أن أدوس على فوهتها المغطاة بالقشّ والتراب. بعد أن ظلوا لأشهر يطاردونني من مكان إلى آخر بالعصيّ والحبال والبنادق، وسدّوا أغلب المنافذ التي أمرّ منها. بل أنهم تعمّدوا نشر عدد من الرجال في محيط القرية ببنادقهم، وشرعوا يحفرون تلك الحفر ليلا حتى لا أترصدهم وأعرف عدد الحفر وأماكنها. وفكرة الحفر تلك اقترحتها عائشة على شيخ القرية وقدمها بدوره أمام الناس باعتباره صاحب فكر وقاد. ويبدو أن عائشة بعد أن سقطت في تلك المطمورة التي حفرتها في ساحة منزلها لتربية الأرانب وكادت أن تموت بعد أن أغمي عليها وأصيبت برضوض كثيرة. خرجت من تلك المطمورة بشق الأنفس وألقت بجسدها وسط الحوش وظلت لساعة أو يزيد تحاول أن تسترجع ذاكرتها المفقودة بعد أن اصطدم رأسها بقاع الحفرة ودهست عددا من الأرانب بفعل السقوط. تلك الحفرة نفسها هي التي أوحت إليها أن تقترح على الشيخ فكرة توزيع عدد من الحفر في أرجاء القرية ليسقط ذلك المسخ في إحداها.

ولأن الأزقّة كثيرا ما يقع حفرها وردمها بين الحين والآخر لإخفاء تلك المياه المتعفّنة الخارجة من البيوت في شكل مجاري، فإنّ ملاحظة تلك الحفر التي أعدّوها في شكل فخاخ، يصعب رصدها.

على عمود غليظ صمّم على شكل صليب، كنتُ موثوقا من قوائمي بمسامير غليظة وحبال لا يقوى أعتي الرجال على فكّها. ما زالت الجموع تتوافد إلى مسرح المهرجان مدججة بالعصيّ والحجارة والأسلحة البيضاء والبنادق، وكل ما استطاعوا توفيره من أجل هذا الكائن الغريب الذي قد ينفلت في أي لحظة من عقاله، ويهجم على الناس فيقضم منهم ما يستطيع قضمه ليتركهم للريح وللعدم.

بدأت الريح تؤذن بالخراب، ربما إيذانا بطقس الحرق المقتطع من التاريخ. الحرق باعتباره تطهيرا أو تصعيدا أو نهاية البدايات المرفوضة.

آه.. نسيت أن أقول لكم أن ما تبقى من الأطفال في هذه القرية المشؤومة، تسلحوا بما أمكن من خضر متعفنة، وأعواد حطب تتلاعب بها الريح هنا وهناك لرجم جسدي المنبوذ على مرأى ومسمع من الحضور، تسبقهم قهقهاتهم الساخرة والمدوّية. ذلك المشهد الذي أصبح عليه جسدي زاد من قيمة الطقس الجنائزيّ، وأضفى عليه مزيدا من الرغبة في تطهير القرية من النجس المتمكّن في مفاصل الرجال والنساء. وكنت في الأثناء وأنا أتأمّل الجماهير الحاضرة، أمدّ لساني لألتقط ما علق من بقايا الخضر على وجهي. بل صرت في صراع حتى مع الكمّ الهائل من النمل الطائر الذي بدا وكأنه يحتفل مع الناس بهذا الحرق الكبير. يصعد من الأرض الساخنة في شكل أسراب، ثم يهجم على وجهي كسرب نحل مذعور، ويظل يسري بسيقانه الجارحة وقرصه السام، حتى أنفض رأسي بعنف ليطير متفرّقا، ثم يعود ليعيد الكرّة في حركات استفزازيّة ساخرة.

أحاول جاهدا أن يصل اللسان إلى أقصى نقطة من مساحة وجهي، كي أزيل تلك الشوائب متحديا أولئك الأطفال الهمّج. غير أنّ الأطفال يزداد هيجانهم ونقمتهم، لاعتقادهم أنني أخرج لساني في وجوههم سخرية وتهكما، فيضاعفون من حبات الخضار المتعفّنة وحبات التمر والحجارة والعصيّ، وكل ما صادفوه أمامهم.

أطفال هذه القرية حفاة عراة بالكاد تجد قطعة من قماش أو صوف تستر عوراتهم. قماش يقال أنه قُد من أكياس الطحين التي كانت تمن

بها الدول الاستعمارية على الشعوب المستعمرة.

ولأن مثل هذا القماش نادر إلى جانب الصوف الذي يعدّ ثروة يجب المحافظة عليها من التبذير، فإن عددا لا باس به من أولئك الأطفال يتجولون عراة إلى سن العاشرة أو أكثر بقليل. وأحيانا لا ينتبهون إلى أن أحدهم قد صار بالغا ويجب ستر عورته.

وأنا أنتصب على ذلك الصليب، كنت أرى العالم بشكل مغاير. أرى القرية من أعلى، وأرى الناس أصغر قليلا من أحجامهم. ربما كنت الوحيد الذي تتوفر له هذه الفرصة ليرى القرية من أعلى. أرى البيوت المتناثرة والأغنام الراعية والصبية يركضون هنا وهناك. أرى القبعات والعمائم والنساء والرجال من أعلى. أرى أطراف القرية بوضوح أكبر، بعد أن قطعوا ما استطاعوا من أشجار تلك الغابة التي كانت تردّ الريح ورمال الصحراء الجارحة. أرى القرية أكثر استدارة من قبل. وهذا الصليب الذي يشدّني يتوسّط صرتها.

أرى الامتداد الفارغ بعد انتهاء حدود القرية. امتداد الصحراء الحارقة التي لا أحد يعرف نهايتها.

كنت أرى الامتداد وأحسّه ساخنا وباردا في نفس الوقت. ولكنني كنت أفكّر لحظتها في أنّ بقائي في ذلك المكان معلقا على ذلك الصليب، لن يدوم طويلا. وأنّ اشتعال النار قد لا يدوم أكثر من ساعة لأهوي بين براثنها وتأكلني ألسنتها كجذع شجرة يابس.

حين اشتدّت النار وزاد لهيبها، زاد الصراخ والعويل والتسبيح ورجم الشيطان الأكبر بما توفّر من أسلحة. وهم يطوفون حول الطقس الجنائزيّ، إنما يطوفون حول حقد تأصّل في قلوبهم، رغبة في تأصيل

ذلك التطهير.

بدأ الحفر في الأرض القاحلة حفرا متواترا، يتداول عليه بعض الرجال السود الأشداء. ثم شدّ الصليب من أطرافه بحبال غليظة، قصد مساعدته على الانتصاب ودسّ ساقه في تلك الحفرة العميقة، حتّى ينتصب واقفا يعيد طقس المسيح في أبهى صوره. بدأ الشدّ والجذب والتراخي، تفاعلا مع ميلان الصليب وتأرجحه يمنة ويسرة، حتّى انتصب واقفا في تلك الحفرة بصعوبة. ارتفعت الزغاريد وانفرجت الأسارير، كمن اكتشف طريقا سالكة في الصحراء. أسرع الجمع إلى دفع التراب إلى تلك الحفرة، ثم الدوس عليه بسيقانهم حتى يتمكّن من شدّ الصليب ويتركه بمفرده يتكئ على الريح، بعد أن صبّوا ما أمكن من الماء حتى يتماسك التراب ويصير أكثر قدرة على شدّ الصليب المنتصب في صرّة الأرض.

ظل شيخهم يتمتم في سرّه وعلنه، يدعو النار أن لا تكون بردا وسلاما على جسدي. وسمعته يهدّد وهو ينظر نحوي «لا تعتقد أنك المسيح أيها المسخ. لن يرفعك الله ولن يشبّه لنا».

كان يتمتم وهو يدور ويرغي كثور هائج. حتى يعتقد من يسمعه أن الأمر اختلط عليه، فلم يعد يفرّق بين قصة إبراهيم وقصة عيسى ابن مريم. أو ربما تعمّد الجمع بينهما حين جمع النار والصليب لجسد واحد. استحضر نار إبراهيم وصليب عيسى ليكون العذاب أشدّ إيلاما، وأنجع فائدة. فقد نجا إبراهيم من النار ورُفع المسيح ولم يمت كما كان يعتقد معذبوه، لهذا فإنّ

الجمْع بين النار والصَّلب قد لا يُعطي الفرصة لهذا المسخ للنجاة،

وسيكون موته محققا لا محالة.

شيخ القرية الذي يشاع أن أصله تركي رغم عدم تصريحه بذلك، اختاروه ليكون شيخهم بعد وفاة شيخهم بلحسن. لأنه الأكبر سنا، وهو الوحيد الذي يحفظ القرآن ويجوّده. وهو الحاضر دوما في أفراح الناس وأتراحهم وكل ما يهم شؤون القرية من قريب أو بعيد. بل حتى كل ما يهم الناس كبارا وصغارا نساء ورجالا.

تراجع الجميع إلى الخلف، كأنهم يقيسون دقة الانتصاب، وصواب ما أنجزوه. يغيّرون زوايا الرؤية من كل الجهات، كمن يتأكد من توازن الهرم المقلوب على رأسه.

تأكّد لهم صواب ما أنجزوه، فرأيت تهاليل الفرح على وجوههم دون عناء. تقدّم شيخهم يشير بيده إلى كدس الحطب إيذانا بترتيب المشهد قبل بداية الحرق.

ولكن ترتيب الحطب تحت ذلك الصليب الذي يشدّني، ليس بالعمل اليسير. لذلك تكفّل الجميع بمد الأغصان إلى ذلك الشيخ، وبمساعدة ذلك الشاب الأسود قويّ البنية، شرع في ترتيب تلك الأغصان بطريقة متناغمة، تجعلها قادرة على التشابك والانتصار لفعل الحرق بسهولة، بحيث لا ينفلت اللهيب يمينا ويسارا، إلا إذا حركوه. وفي فعل حرقٍ كهذا، يُترك الحطب للنار كي تفعل فعلتها فيه دون تدخّل. يظل اللهيب ينخر الحطب من الداخل إلى الخارج، ثم من الأسفل إلى الأعلى بنغميّة تسندها تقتقة منتظمة تحت براثن أسنان النار المتوثبة.

ويبدو أنني للمرة الأولى أرى شيخ القرية يمدّ يده ليُنجز شيئا ما.

كان يتعالى عن أن يشعل نارا في فرن أو كانون شاي أو حتى يهش شاة أو ينهر كلبا. ولكنه يبدو أن شدة نقمته عليّ وعلى ما فعلته في أهل القرية هو الذي دفعه إلى أن يضع ذلك الحطب بنفسه كأنه يريد أن يتأكد من أن ذلك الفعل حصل حقيقة. أو يريد أن يضفي على ذلك الفعل قيمة ما بيديه المباركتين.

نفس المشهد تكرر عبر التاريخ منذ بداية الإنسان الأول. وحتى لو اخترعوا حرقا ميكانيكيا أو كهربائيا، فإن طريقة الحرق هذه تظل الأكثر تطابقا مع طبيعة الإنسان وغرائزه.

اكتمل المشهد كأبهى ما يكون الاكتمال وسط القرية. بطحاء شاسعة للاحتفالات والأعراس والجنائز ونشر الإشاعات والأخبار. هو المسرح الكبير، حيث يقع عرض المشهد للزائرين والمتطفلين والرواد. وإن كان عدد الوافدين إلى القرية لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، منذ سنوات طويلة. فالقرية في مكان قصيّ عن العالم، ولا تشقها طرق القوافل ولا حتى طرق العصابات وقطاع الطرق. وعلى ما أذكر فإن عدد من وفدوا على القرية واستقروا فيها، حسب ما تلقفته من حكايات الكبار، لا يتجاوز الثلاثة أشخاص، آخرهم ذلك التاجر اليهوديّ الذي استقرّ في القرية، ولم يغادرها. ولا أحد إلى الآن يعلم كيف وصل هؤلاء إلى هنا، وكيف استطاعوا عبور تلك الصحراء الممتدّة التي لا تعبرها إلا الهوام وقوافل التجار والآليات العسكرية الضخمة بحجم بيت من طين. والتي لا أحد رآها إلا في خيال من حكى عنها من الوافدين القلائل.

المهم أن كل الذين وصلوها من أماكن مختلفة، لم يستقروا فيها

بل أقاموا بعض الأيام من عناء السفر، أفرغوا بضاعتهم ثمّ أكملوا رحلتهم إلى مبتغاهم على خيلهم وجمالهم. وإن قُدّر لهم أن يستريحوا قليلا، فإن استراحتهم لا تتجاوز الثلاثة أيام.

كانت القافلة التي تصل وتحطّ في الساحة الكبرى تتجمهر حولها كل الناس نساء ورجالا وأطفالا حفاة يركضون في كل مكان فرحا بالوافدين. يقدّم الناس لهم حليبا وتمرا إلي أن يجهز خبز الأفران الساخن وتذبح الخراف بإذن من شيخ القرية. بعد أن يرتاح التجار من سفرهم في خيمة تنصب لهم في الإبان يطرحون بضاعتهم على الأرض فترى القماش والأواني النحاسية وعطور النساء وأدوات التجميل والتبغ الرخيص وأشياء أخرى تصلح للشأن اليومي. وقد تجد أيضا مصابيح الإضاءة والشموع والتوابل وحتى الكحول التي يطلبها البعض همسا وتُمدّ لهم خلسة.

يشتري الناس ما يحتاجون وتتزاحم النسوة والصبايا على العطور والكحل والأمشاط والمرايا والملابس وكل ما يهم الزينة.

يفرغ التجار من بيع ما أمكن بيعه ثم يكملون طريقهم أو يعودون من حيث وفدوا. وهكذا إلي حين وصول قافلة أخرى لا أحد يعرف توقيتها ولا موسمها.

اكتمل المشهد كأبهى ما يكون الاكتمال. بطل المسرحية كائن غريب روّع الصغار والكبار وأكل منهم نسلهم، ينتصب وسط ذلك المسرح الشاسع.

ما تبقّى من ضوء النهار ينبثق بخجل من غرب القرية يصارع للبقاء أمام حضور السواد. تمازج ضوئي بين الأبيض والأسود يشي

بقتامة المشهد المعدّ للعرض رغم الحمرة الطافحة كحبات مرض الحصباء تتوزع على لحاف تلك السماء المرتفعة.

كانت أصوات الصبية وهتافهم كجوقة في مسرح إغريقيّ يتدخلون بالتعليق والصياح والصفير. أما تلك الحشرات التي أبهرتها الإضاءة الحارقة من خنافس وبعوض ونمل طائر، فهي جزء من هذا المشهد الذي أزعج أغلب الحاضرين، الذين لم يكفوا عن الضرب بأيديهم وأطراف برانسهم وأغطيتهم الصوفية لطردها.

ماذا تبقى إذن؟

ما تبقى هو انطلاق العرض دون توقيت يحكمه. لا أحد يعرف بالدقة اللازمة كم سيتواصل العرض، ومتى سينتهي. فهذا العرض بلا مُخرج رغم توفّر كل أركان المسرحية التراجيدية.

ذاكرتي المثقوبة لم تسمح لي باستحضار كل اللحظات الأخيرة لوقوعي بين أيديهم كأسير حرب. ولكن الذي أستحضره هو وقوعي في هوّة عميقة كانت قد أعدّت لي سلفا، كي أقع فيها.

أعترف أنها فكرة جهنّميّة من أفكار عائشة زوجة منصور. وهي الفكرة التي نسبها شيخ القرية لنفسه، ليرى ما يدّعيه من حكمة وسلطان في عيون الناس.

غطوها بالحطب والقشّ وأهالوا عليها التراب، حتى تصبح غير مرئيّة بالشكل الكافي. وعلى ما يبدو، فإن تلك الهوّة السحيقة التي حفروها، لم تكن الوحيدة في فضاء القرية المحدود. بل وزّعوا على الأرض عددا لا بأس به من الحفر بشكل يجعل تفادي واحدة، لن يمنع من الوقوع في أخرى. بل وضعوا خريطة دقيقة لتوزيع الحفر في

المسالك والمنعرجات ومداخل القرية ومخارجها، حتى تكون معلومة عند أهل القرية فلا يقعوا فيها. هي خريطة أشبه بخرائط الألغام التي تُرسم أثناء الحروب. وعلى شاكلة تلك الخرائط التي يخطئ راسموها أحيانا، فيسهون عن لغم أو سلسلة ألغام أو ربما ضياع الخريطة أصلا، فإن أهل القرية قد يقعون في نفس ذلك الخطأ، وتكون تلك الحفر أو بعضها آكلة لجسد شيخ أو طفل أو حتى عابر سبيل وصل لأوّل مرّة إلى القرية، فاحتفلت به كأبهى ما يكون الاحتفال. لهذا كانت أحدى الحفر سببا في وفاة أحد السود الذين يعملون مع والدي في رعي أغنامه، وتفقّد مزرعته. أرسله والدي في أحدى الليالي الحالكة باحثا عن خروف حاد عن سير القطيع إلى طريق آخر. أمره زاجرا بأن يخرج فورا ولا يعود إلا ومعه الخروف. وفعلا لم يعد أصلا. فقد وجدوه عند طلوع النهار ملقى في أحدى الحفر وقد لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن أصيب على مستوى رأسه، فظل ينزف ويصيح دون أن يسعفه أحد. أما ذلك الخروف التائه، فوجدوه بدوره في حفرة أخرى، ولكنه لم يصب بأيّ أذى. فرح أبي ببقاء الخروف حيّا، دون أن يحزن على ذلك العامل الذي قضى سنوات في خدمته. تكفّل بعض السود بحمله إلى طرف القرية، أين دفن هناك وانتهى الأمر في الجزء الخلفي من المقبرة.

كنت أقفز قفزاتي المعتادة هربا من رصاص بنادقهم، حتى احتضنني قاع الحفرة. وفقدت الوعي بفعل الارتطام. أفقت على مشهد ربطي إلى هذا الصليب دون مقدمات.

آه.. نسيت أن أقول لكم أن أحدهم وجه فوهة بندقيته إلى جثّتي الملقاة جنب الحفرة، بعد انتشالها. كان يريد أن ينهي المسرحيّة قبل بدايتها. ولكن البقيّة، ورغبة منهم في مشاهدة العرض كاملا غير

مجزوء، صدّوه عن فعلته تلك، وأقنعوه بأن الانتقام الأفضل هو فعل الحرق. من يدري، ربما قتلي بالرصاص ودفني لا ينهي القصة. بل ينهيها بشكل سريع لا يجعل للناس القدرة على إشباع ما بأنفسهم من حقد، ولا يجعلهم يستمتعون بفعل الحرق، كما يجب أن يكون الاستمتاع في أي فعل انتقاميّ.

ورغم أنّ مختار الذي رفع كمّ جبّته الرماديّة على كتفه، وأشهر البندقية في وجهي، وكان مصرا على قتلي، إلا أن الجميع صدّوه عن ذلك، وأقنعوه بصعوبة من يُقنع ذئبا كي يكفّ عن أكل الشاة.

ومختار تحديدا عرف عنه العناد والشدّة. فهو سريع الغضب كثير التوتّر يلتجئ بسرعة إلى إشهار بندقيّته، في أي موقف ودون تردّد. حتى أنه في أحد الأيام بعد أن نطّ ذئب إلى زريبة الخرفان، وقد سمع الثغاء وهو في بيته يصلي، توقّف عن الصلاة وخرج مسرعا شاهرا بندقيته، وظل يطلق النار كما اتفق حتى أصاب ثلاثة من خرافه. فيما الذئب غادر الزريبة حتى قبل أن يصل مختار إليها.

والغريب أن كل من يراه يعالج فحيح الأفاعي والثعابين بصبر وثبات، لا يقول أنه هو نفسه مختار الغضوب العنيد.

ليس مختار وحده من حاول قتلي. لقد فكّر آخر في قتلي داخل الحفرة، وردّ التراب، وبالتالي ينتهي الأمر بمنتهى السهولة. حينها يعود الناس إلى شؤونهم وقضاء حوائجهم وقد زال الكابوس الذي جثم على صدورهم نهائيا.

رفضوا.. كلهم رفضوا قتلي بتلك السهولة. إن فعل القتل أسهل بكثير من أي حدث إنسانيّ آخر. لهذا لا بدّ أن يكون القتل آخر

مرحلة بعد الانتقام بالتعذيب والسب والشتم والحرق، وليساهم كل فرد من أهل القرية في ردّ الاعتبار لأهله ولقريته.

الموت البطيء يوفر للعدوّ قدرة هائلة على أن يُخرج تلك الشحنات الدفينة من أعماقه بشكل متدرج ولذيذ، حتى ينهيه فيستريح، راحة الموت الافتراضيّ. فالعدوّ الذي يموت بفعل التعذيب، هو أيضا يساهم في قتل قاتله بشكل تدريجيّ، ولكنه قتل افتراضيّ ليس إلا.

ارتمت على جثّتي كميّة من حبال كالثعابين طوقتني، حتى أصبحت غير قادر على الفكاك من وثاقي، خاصة وأن إحدى قوائمي قد أصيبت إصابة بليغة، أفقدتني القدرة على تحريكها بشكل طبيعيّ.

أكملت الغيبوبة حضورها ومنعتني من أن أستحضر كلّ التفاصيل، عدا ما تبقى من لحظة ربط وثاقي إلى ذلك الصليب الذي رُفعتُ عليه. ولم أذكر هل تمّ نقلي إلى الساحة الكبرى مجرورا أم مرفوعا على قوائم من حطب.

صدّقوني هذا كلّ شيء. فأنا وعدتكم أن أحكي لكم الحكاية كاملة، ودون تحريف أو تشويه. هذا كل شيء. وأنا الآن أنتصب على هذا الصليب استعدادا لفعل الحرق. استعدادا لانطلاق العرض التراجيديّ.

أنا قلت العرض التراجيديّ، وفي الحقيقة هو عرض داخل العرض. فأنا بطل المسرحيّة أقدّم عرضا كوميديا لمشاهدين، يعتقدون أنّ العرض من صنف التراجيديا. ولكنها كوميديا سوداء تمزج الفكاهة بالجدية بأسلوب مشوّق.

هل سمعتم بمسرحيّة تتعارض فيها تطلعات الجمهور مع تطلعات

الممثلين؟ هٰذا ما يحدث الآن. في الوقت الذي يستعدّ فيه الجمهور لمتابعة عرض تراجيديّ قوامه القتل والحرق والحقد. يستعدّ الممثل لعرض مسرحيّة كوميديّة يسخر فيها من الجماهير الحاضرة. تقاطع غريب بين المتناقضات يقدّم في طبق واحد دون اعتراض أي طرف على الآخر.

مثل هٰذا الكلام سمعته على لسان اليهودي ليفين وهو يردّد بصوت مرتفع. كان ذٰلك في وقت متأخر من الليل، وكنت لحظتها بصدد التبوّل وراء بيته تماما، تحت شباك غرفة نومه. كان يقرأ كتابا عن رجل أنجليزيّ يسمى شكسبير.

شدّني ذٰلك الكلام الغريب، فجلست القرفصاء أكمل الاستماع إلى ذٰلك الكلام الغريب الذي لا يشبه القرآن الذي يُتلى في المسجد أو في البيوت أو الساحات العامة.

ظللت أحكي حكايتي لذٰلك الجسد الممدّد بجانبي، وهو يحرك رأسه يمينا وشمالا دون أن تظهر على سمات وجهه أي غرابة أو أسئلة حيرى كما كنت أنتظر. يحرّك جسده حينا ويومئ برأسه أحيانا مظهرا نوعا من التفاعل مع قصتي، التي أعتقد أنها قصة عاديّة كأي قصّة أخرى.

كنت قلقا بعض الشيء لا بسبب ما أحكيه لهٰذا الغريب، ولكن بسبب ضيق القبر الذي منعني من أن أمدّ قوائمي الطويلة مثله. فالمكان أعدّ لشخص واحد ظل ممدّدا دون أن يتنازل ويطوي قوائمه ليسمح لي بأن آخذ حيّزا من المكان، أشاركه فيه. فساقي المصابة تجعلني في حاجة أكيدة إلى أن أمدّها حتى يخف الألم قليلا. مع أن كل أطرافي مصابة وعليها آثار تلك المسامير والحبال التي كانت تضغط

عليها.

للمرّة الأولى شعرت بقلق وخوف وارتباك. الميت الذي نزلت عنده تحت الأرض بقليل ظل ثابتا ومحافظا على هدوئه، ولم يصدر عنه أي تصرّف غير عاديّ. كأن ينهض غاضبا ويخرجني عنوة من قبره. أو يصيح مزمجرا ليجبرني على أن أنجو بجلدي هاربا.

ظل ممدّدا كما هو بلحافه الأبيض ينتظر مني أن أكمل ما بدأته من كلام.

توقفت الحكاية عند لحظة استعداد الجماهير الغاضبة لفعل الحرق، وساد صمت طويل جعل القبر أكثر رهبة. وقد سُمع حراك كبير فوق الأرض يشبه الركض العنيف. لكأن الأرض زلزلت زلزالها، دون أن تُخرج أثقالها. خمّنت لحظتها أن ذلك الركض، هو صدى وقع أقدام الرجال والأطفال والنساء الذين يبحثون عنّي بعد أن نجوت من فعل الحرق ذاك.

وخيّل لي أنني استطعت أن أميّز بين من ينتعلون خفا أو سندلا من الجلد أو من يركض حافيا. بل ذهب بي الوهم إلى أن هذا الخف يمشي على الرمل ليحدث حفيفا كسعف النخيل.

وذاك على الحصى فيحدث صوتا كتقتقة العظام. وآخر على الأرض اليابسة يصدر صوتا كطرق مطرقة من خشب.

المكان آمن هنا، على الأُقل إلى حدّ اللحظة، فأنا داخل قبر وليّ صالح تحت قبّة بيت صغير وسط مسجد لا يدخله إلا المطهّرون. مع أنني أحسست في البداية باختناق ورائحة رطوبة وبرودة كريهة زادت الظلمة من حدتها.